



دور الخطابي في تأسيس نظرية النظم الجرجانية *The role of Al-Khattabi in establishing Al-Jurjani's theory of Al-Nazm*

علي زواري أحمد

مخبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية
جامعة الوادي (الجزائر)
zouari-ahmed-ali@univ-eloued.dz

هاجر غربي*

مخبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية
جامعة الوادي (الجزائر)
hadj-gherbi@univ-eloued.dz

تاريخ النشر: 2025-03-15

تاريخ القبول: 2025-01-11

تاريخ الاستلام: 2024-05-23

ملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى إبراز جهود أبي سليمان الخطابي (388هـ) ودوره في تأسيس نظرية النظم التي اكتملت معالمها على يد عبد القاهر الجرجاني في كتابه (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة)، وقد جاءت جهوده تلك في رسالته (بيان إعجاز القرآن)، وأهم ما جاء به البحث هو محاولة الوقوف على جوهر ما قدمه الخطابي في تأسيس نظرية النظم، في ظل إغفال بعض المؤرخين والبلاغيين لجهوده التأسيسية؛ ومنهم: الرافعي في (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية)، وكذلك حاتم الضامن في مصنفه (نظرية النظم تاريخ وتطور)، فقد اكتفوا بمجرد الإشارة والتلميح، ومثل هذه الدراسات التخصصية تشكل تصورا عند الباحثين بانعدام أهم الجهود السابقة في تكوين أسس هذه النظرية ألا وهي جهود الخطابي، ولمعالجة هذا الإشكال؛ فقد قسمت أركان هذا المقال على مقدمة وثلاثة مقاصد؛ مذيلة بخاتمة وبعض التوصيات، وخلصت الدراسة إلى عدة نتائج، أهمها: أن الجهد الذي قام به الخطابي في قضية النظم من الجهود التي يجب أن تثمن ولا تغفل؛ لكونها تمثل محطة مركزية في نشأة وتأسيس نظرية النظم.

الكلمات المفتاحية: الخطابي؛ تأسيس؛ نظرية؛ النظم؛ الجرجاني.

Abstract:

This study aims to highlight the contributions of Abu Sulayman Al-Khattabi (d. 388 AH) and his pivotal role in laying the foundational principles of the Theory of Al-Nazm (composition), which was later fully developed by Abdul Qahir Al-Jurjani in his seminal works *Dala'il Al-I'jaz* (The Proofs of the Miraculous Nature of the Qur'an) and *Asrar Al-Balagha* (The Secrets of Eloquence). Al-Khattabi articulated these contributions in his treatise *Bayan I'jaz Al-Qur'an* (Explaining the Inimitability of the Qur'an). This research seeks to

* المؤلف المراسل.

uncover the core of Al-Khattabi's efforts in establishing this theory, particularly in light of the disregard shown by some scholars toward his foundational role. For example, Hatim Al-Dhamin in *The Theory of Al-Nazm: History and Development* and Mustafa Al-Rafi'i in *The Inimitability of the Qur'an and Prophetic Eloquence* merely allude to his contributions without giving them adequate attention. This neglect has led to the mistaken belief among researchers that no significant early efforts preceded Al-jurjani's in forming the basis of the theory of Al-Nazm.

To address this gap, this article is structured into an introduction, three main sections, a conclusion, and recommendations. The study concludes that Al-Khattabi's contributions to the theory of Al-Nazm represent a central and indispensable milestone that must be acknowledged and valued as an essential part of its historical development.

Keywords: AL-Khattabi; foundational contributions; theory; Al-Nazm; Al-Jurjani.

1. مقدمة

لقد تبلورت نظرية النظم على يد عبد القاهر الجرجاني الذي وضع أصولها، وشرح مبادئها، منطلقاً في تحليل الكلام على توجه عقلي مسبق وأسس معرفية متراكمة يخدم بعضها بعضاً، فنجح في تطوير فكرة النظم، واتخذها سبيلاً في تحليل (أسرار البلاغة) و(دلائل الإعجاز) معاً، فمزج فيها بين التنظير والتطبيق، ليصل به المطاف إلى تأسيس نظرية قائمة بذاتها، ذاع صيتها في الساحة الأدبية واللغوية، وقد نهل منها العلماء قديماً وحديثاً، عرباً وعجمًا، شرقاً وغرباً.

وللعلم فإنّ نظرية النظم لم تتولد عند عبد القاهر من فراغ، ولم تتكون هكذا فجأة دون إشارات وإرهاصات مهّدت لها، فلا يعقل أن تصل نظرية إلى ما آلت إليه من النضج والتكامل دون سابق ذكر وجهد، بل لا بدّ وأن وراء كلّ هذا الإنجاز العظيم جملة من المعارف، أورثتها جهود السابقين، فهيأت الأسباب لميلاد نظرية قائمة بذاتها خلّد التاريخ ذكرها سلفاً وخلفاً.

ولعلّ أبرز من كان له الدور في الإسهام في هذا التأسيس والبناء، هو أبو سليمان الخطابي (388هـ)، فقد كان له بصمة في وضع لبنات هذه النظرية لما قدّمه من أفكار وإشارات كانت سبباً في نضوج نظرية النظم التي انتهت إليها الجرجاني. ولذا وقع اختياري على هذا الموضوع، وارتأيت البحث فيه، وقد وسمته بعنوان: "دور الخطابي في تأسيس نظرية النظم الجرجانية".

1.1. أهمية الموضوع:

تتمثل أهمية الموضوع فيما يلي:

- يكتسي الموضوع أهميته من أهمية ومكانة نظرية النظم التي شهد لها التاريخ بالسبق في الدرس اللغوي، ولعلّ أبين دليل على ذلك توافد الباحثين والدارسين عليها تحليلاً ودراسة وشرحاً.
- كما أنّ الموضوع له أهميته الكبرى - قديماً وحديثاً - لكونه اتّصل بموضوع مهمّ له أثر كبير على الدرس اللغوي العربي نظراً لعلاقته الوطيدة بالقرآن الكريم، ألا وهو موضوع الإعجاز؛ لذا نجد نظرية النظم جمعت بين دعامتين أساسيتين في تراثنا، وهما: القرآن الكريم واللغة العربية.

- وأخيرا فإن أهمية الموضوع تنبثق من التعريف بجهود العلماء السابقين الذين كان لهم فضل السبق في نشأة نظرية النظم، بحيث كانت جهودهم لبنات مترامية في صرح بناء هذه النظرية ما جعل الجرجاني يقيم هذا الصرح بجمع شتات تلك اللبّات ليرسم لنا من خلالها صورة البناء النظري المتكاملة، وليستقر بعدها هذا التشييد وإلى اليوم.

2.1. إشكالية البحث:

من خلال ما تقدّم نجد أنفسنا أمام إشكالية مفادها: ما الدور الذي بذله الخطابي في إبراز معالم نظرية النظم والإسهام في قيامها.

ويتفرّع عن هذه الإشكالية الرئيسية جملة من الأسئلة الفرعية، نطرحها كالآتي:

- ماهي أبرز الأركان التي بنى عليها الخطابي نظريته في الكلام؟
- وكيف كان لتلك الأركان الأثر في نظرية النظم الجرجانية؟
- وماهي أهم نقاط التقاء أفكار الخطابي مع ما جاء به الجرجاني في بناء نظريته؟

3.1. أهداف البحث:

نرمي من خلال هذا البحث إلى تحقيق جملة من الأهداف، أهمها:

- 1- إبراز أهم جهود الخطابي في تأسيس نظرية النظم نظراً لإغفال جهوده من قبل بعض المؤرخين، والباحثين في مجال البلاغة والنقد.
- 2 - تسجيل أهم ما قام به الخطابي في نشأة نظرية النظم، وكان له الأثر البارز في تأسيسها.

4.1. منهج البحث:

اعتمدنا في هذه الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي، الذي يتناسب ومثل هذه الدراسات الوصفية التقريرية، وبذلك حاولنا المقاربة بين رؤية الخطابي والجرجاني للنظم القرآني من خلال شرح وتوضيح بعض أفكارهم وآرائهم في قضية النظم، ومقارنتها ببعضها بغية الوصول إلى أهم نقاط التواصل والتوافق بينهما.

5.1. خطة البحث:

لمعالجة الإشكالية المطروحة، وبلوغ الأهداف المسطرة، فقد جاء البحث مكوناً من مقدمة وثلاثة مطالب وخاتمة مذيلة بالنتائج والتوصيات على التقسيم التالي:

المقدمة وقد تطرّقنا فيها إلى أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وإشكاليته، وأهم أهدافه، والمنهج المتبع في الدراسة، وخطة البحث.. وبعدها مطالب البحث.

فتكلّمنا فيه أولاً عن النظم قبل الخطابي، فشمّل تأريخ الكلام في النظم قبل الخطابي، وبيننا مدى إفادته من جهود سابقه.

ثم أردفناه بالحديث عن أركان الكلام عند الخطابي؛ إذ تمّ فيه تحليل الرّكائز الثلاث التي بنى عليها الخطابي أعمدة نظريته؛ وهي اللفظ، والمعنى، والرباط الناظم. وختاماً وقفنا على أهمّ معالم النّظم القرآنيّ بين الخطابيّ والجرجانيّ، وفيه حاولنا المقاربة بينهما في مسألة النّظم القرآنيّ، وبيان أنّ جهود الخطابيّ في القضية جهود مركّزة، أفاد منها الجرجانيّ بقدر معتبر من بعده.

ثمّ بعدها الخاتمة التي رصدنا فيها أهمّ نتائج البحث وأعقبتها بالتوصيات. وبعد هذه المقدّمة لتفاصيل البحث، نشرع الآن في تفصيل وبيان مطالبه السّالفة الذكر.

2. النظم قبل الخطابيّ

سنحاول في هذا المطلب الأوّل إلقاء نظرة تاريخية على مفهوم النّظم قبل الخطابيّ لبيان مدى إفادته من جهود سابقيه، أمثال: ابن المقفّع (142هـ)، وسيبويه (180هـ)، والجاحظ (255هـ) وغيرهم. وقبل أن نتكلّم عن علاقة هؤلاء الأعلام بالنّظم فإنّه يحسن بنا أن نشير إلى أنّه قد شاع مصطلح النّظم في كتب الأوّلين - من النّحاة والبلاغيين - قبل الخطابيّ، فكانت أفكارهم وآراؤهم بمثابة الإرهاصات الأوّلية التي أخذ منها اللاحق عن السّابق، وأدلى كلّ بدلوّه، إلى أن وصل الأمر إلى الخطابيّ الذي أطلّ على النّظم من نافذة الإعجاز، مبدئياً فيه رأيه ووجهة نظره، ليؤوّل الأمر بعدها إلى شيخ البلاغيين عبد القاهر الجرجانيّ الذي اكتمل على يديه صرح نظريّة النّظم، فكان من بعده عالمة عليه، فقد كان مقصداً للباحثين والدّارسين فيما يتعلّق بالنّظم إلى اليوم.

1.2. ابن المقفّع (ت 142هـ):

لعلّ أقدم من أشار إلى فكرة النّظم في الكتابات العربيّة، هو ابن المقفّع، حيث يرى أن منشئ الكلام ومنتجه في أحسن صوره وأجود تأليفه، إنما هو كصانع الذهب والفضة، فالعمل الأصيل والقول البديع إنما يكون صاحبه كصاحب الفصوص من الزبرجد والياقوت والمرجان، الذي ينظمها في سموط، وأكاليل، وقلائد،⁽¹⁾ تسر الناظرين من حيث جمع المتشابهات وضم كل جزء من الكلام إلى بعضه بطريقة التّأليف والتّألف والتشابه، وعلى هذا يكون مدار استحسان الكلام، إذ إن استحسان الكلام من حيث جودة اللفظ وشرف المعنى، ونوع التشبيه له أصول وأسس عند العرب،⁽²⁾ وليس كما يدعي بعض الباحثين بأنّه إشارات عابرة أو مجرد استحسان فردي.⁽³⁾

(1) ينظر: عبد الله بن المقفّع، الأدب الصغير والأدب الكبير، ص 13.

(2) حسان الدوري، المصون في الأدب لأبي أحمد العسكري - دراسة نقدية تحليلية، ص 88.

(3) المرجع نفسه، نفس الصفحة.

وعلى هذا جعل ابن المقفع استحسان الكلام صناعة تتطلب حذقاً ومهارة، والنظم من وجهة نظره كالمعيار الذي يقاس به حسن الكلام وجودته، وهذه الإشارات الأولى في ضم الكلام وطريقة تأليفه هي الارهاصات الأولى لنظرية النظم.

2.2. سيبويه (ت 180هـ):

المتبوع لكلام عبد القاهر في ثنايا تأسيسه لنظرية النظم، يلمح بلا شك تأثيره بإمام النحاة سيبويه في أكثر من موضع، حيث استمد منه جوهر أفكاره وآرائه النحوية، والتي كانت ضمن مباحث نظريته، وأهمها ما تعلق بعلم المعاني -التي تفضي إلى تألف العبارة وبالتالي تألف المعاني-، كالتقديم والتأخير، والحذف، والوصل والفصل، والتعريف والتنكير... فأفاد منها في تأصيل نظريته، والتي ربط فيها بين النحو والبلاغة، ولعل كثرة الاقتباسات المتناثرة في كتابات عبد القاهر، وعلى وجه الخصوص ما جاء في دلائل الاعجاز خير دليل على ذلك.

ونظراً لاهتمام سيبويه بالمعنى وعلاقته بسلامة وصحة التركيب، فقد جعل له باباً في كتابه يعرف بباب (الاستقامة والاستحالة)، وفيه إشارة إلى أن سيبويه لم يحصر النحو في الشكل وأواخر الكلم، ومن حيث الصحة والخطأ فحسب، وإنما انتقل به من الشكلية المحضة إلى مراعاة المعنى، ولذلك أخذ عنه الكثير من النحاة والبلاغيين، وكان عبد القاهر على رأسهم؛ لأنه جمع بين العلمين، النحو والبلاغة، على حد سواء.

ولكون عبد القاهر قد بنى نظريته على معاني النحو وأحكامه، فكان لزاماً عليه أن يستفيد ممن سبقوه من النحاة، ولا ريب أن سيبويه في مقدمتهم، وهذا ما يعرف بفضل السابق على اللاحق، ومما ندلل به على ذلك ما جاء عند سيبويه في أقسام الكلام من حيث الاستقامة والاستحالة، إذ أنه قسم الكلام إلى أقسام خمس، وهي على النحو الآتي: مستقيم حسن، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، ومحال، ومحال كذب⁽¹⁾، وقريب من هذا عبر عنه عبد القاهر بالمستقيم والحسن تارة، وبالقبيح والمحال تارة أخرى.⁽²⁾

يلتقي عبد القاهر مع سيبويه في كونه لم يحصر النحو في الشكل والصحة والصواب والخطأ فحسب، وإنما تعداه إلى مراعاة حال المخاطب، وإيصال المعنى في أحسن صورة، والأمثلة التي ساقها في هذا الباب خير دليل على ذلك.⁽³⁾

وعليه فإن أثر مباحث سيبويه على ما قدمه الجرجاني في نظريته لا يختلف فيه اثنان، ولا ينكره إلا جاحد؛ لأن المنصف يقر بذلك ولو بعد حين، وبصمة سيبويه حاضرة عند الجرجاني ومن سبقه.

(1) ينظر: سيبويه، الكتاب، ج 1، ص 25.

(2) ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الاعجاز في علم المعاني، ص 112.

(3) سيبويه، المرجع السابق، ج 1، ص 25-26.

3.2. بشر بن المعتمر (ت 210هـ):

نظرًا لمركزية اللفظ والمعنى في قضية النظم، وهي من أهم القضايا النقدية التي حفلت بها كتب اللغة والنقد قديمًا، حيث كان مدار الكلام فيها حول أسبقية أحدهما على الآخر، فانقسم النقاد فيه بين مؤيد للفظ ومنتصر له، وبين منتصر للمعنى، وبين موازن بينهما، وكان بشر بن المعتمر وإن لم يذكر النظم صراحة إلا أن في كلامه ملامحًا طيبة عليه أفادت من جاء بعده، إذ أن بشر يلتقي مع الجرجاني في أن النظم لا يكون بالمعنى وحده، ولا باللفظ وحده، وإنما يتحقق الأمر بهما معًا، وبالبعد عن التعقيد والتكلف الذي يذهب بسلسلة الألفاظ وروح المعاني، وبه يتفق مع الخطابي في مسألة اللفظ والمعنى، إذ يقول ابن المعتمر: « ومن أراد معنى كريمًا فليلتبس لفظاً كريماً، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ».⁽¹⁾

وفي كلام ابن المعتمر عن قضية اللفظ والمعنى، وعلاقة أحدهما بالآخر، إشارة ودليل بين على أمر النظم، نلمحها في حديثه ليس في قضية اللفظ والمعنى فقط بل في إشارة مهمة جدًا، وهي وضع الكلمة في موقعها المناسب لها، وحسن مجاورتها لأخواتها من جهة أخرى... وهذا بحده تلميح وتنبيه إلى نظم وتأليف الكلام، والتناسق بين مفردات العبارة، فلا مزية عنده للفظ وحده ولا للمعنى وحده، وإنما تقع الفضيلة عنده في ملائمة وموافقة الكلام لمقتضى الحال والمقام.⁽²⁾

4.2. كلثوم بن عمرو العتابي (ت 220هـ):

لم يكن العتابي ببعيد عن العلماء الذين سبقوه في الحديث عن النظم وحيثياته، ولو بطريق الإشارة، وذلك حين عد الألفاظ للمعاني بمثابة الأجساد للأرواح، وأن هذه من تلك، كما أنه ينبغي للفظ أن تقع في موقعها الذي يليق بها، وتأنس به مع رفيقاتها، فيتحقق بذلك المعنى المراد، ولذا فالنظم يقوم على ركنين أساسيين، لا غنى لأحدهما عن الآخر، وهما اللفظ والمعنى.⁽³⁾

وفي هذا تلميح لما أشار إليه عبد القاهر، والخطابي من قبله في مركزية اللفظ والمعنى بالنسبة للنظم، وأنه لا يكون إلا بهما، وكذا في حسن اختيار الموقع، لا في اللفظ بعينه، بدليل أنك ترى اللفظ نفسه له أثر في النفس تارة، وله نفور وفجوة تارة أخرى، فلو كان للفظ مزية وحسن في ذاته ما حدث هذا التمايز والتفاضل، ولكن المزية تنبع في تخير الموقع الذي يكسب اللفظ حسنًا ورونقًا.

(1) زبيوش فاطمة الزهراء، حق المعنى الشريف للفظ الشريف - رؤية العلماء العرب القدامى لعلاقة اللفظ بالمعنى، ص 271.

(2) ينظر: المرجع السابق، ص 272.

(3) ينظر: أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص 161.

5.2. عمرو بن بحر الجاحظ (ت 255هـ):

يعدّ الجاحظ ملك البيان، ومالك ناصية الكتابة فيه، ولا ريب أنّه بهذا الكعب العالي لا يفوته أمر النّظم وهو على هذه المكانة من الإحاطة بزماد البيان وخفائاه وأساراه، فهو أوّل من استعمل مصطلح النّظم في كتابه المفقود (نظم القرآن) الذي لم يصل إلينا وقد أشار إليه في بعض كتبه.⁽¹⁾ والمتأمل لمعالم نظرية النظم ولوازمها، يرى أن الفكرة التي تبلورت على يد صاحبها عبد القاهر ماهي في حقيقة الأمر إلا امتداد لمحض أفكار وأراء الجاحظ، حيث أنه جعل مدار الكلام على التلاؤم والانسجام بين أطراف الكلام، وفي أن تحتل الكلمة قرارها وموضعها الأنسب لها، وإذا ما ولينا الوجهة نحو صنيع الجرجاني التمسنا أثر الجاحظ فيه، إلا أن عبد القاهر كان أدق حين بسط القول في نظريته، سواء ما كان على الجانب النظري والتطبيقي؛ لأنه عصر خلاصة جهود سابقه، ولعل من أواصر الجمع بين العلمين أنهما تناولا نظرية النظم من المنظور النحوي والبلاغي، والمباحث التي حفلت بها دلائل الإعجاز، والبيان والتبيين خير دليل على ذلك لما تعرض له من مسائل الحذف، والوصل والفصل، وكذا قضية الصورة الشعرية، التي تحمل في طياتها ألفاظاً مختارة، ومعاني شريفة، وأوزان لطيفة، ونسيج مترابط... أشار الجاحظ إلى قضية النظم في ثنايا حديثه عن الشعر، وتحديد معيار جودته، وهو ما كان متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، وذو سبك مخصوص...⁽²⁾

وعليه فإن الجاحظ كان ممن أولوا عناية بقضية النظم كما هو الشأن عند الخطابي، ولو بطريق غير مباشر، وذلك حين ميز بين الكلام من جهة سبكه وصياغته، فكان منه الرديء والجيد، كما سعى إلى بيان الفرق بين نظم القرآن وتفردّه عن غيره من كلام البشر، سواء كان نظمًا أو نثرًا، وهو القائل بأن مكنم إعجازه في نظمته وتأليفه الفريد، وبهذا كان الجاحظ ممن رسموا الطريق ومهدوه لمن جاء بعده، وعلى رأسهم عبد القاهر الذي أفاد منه الكثير في بناء نظريته وتأصيلها.

6.2. ابن قتيبة (ت 276هـ):

كان لابن قتيبة أيضًا الفضل في التمهيد لقضية النظم، وهو الجوهر الأساسي للإعجاز، وذلك حين تناول مسألة الإعجاز التي ضمنها كتابه «تأويل مشكل القرآن»، والذي كان من دوافع تأليفه الرد على أولئك الملحدّين والطاعنين في نظم القرآن، إذ أنهم اتهموه بسوء النظم وفساده، فما كان منه إلا أن حمل على عاتقه مهمة الدفاع عنه، فساق في كتابه من الحجج والأدلة ما يقصم به ظهر الباطل، ويفند به مزاعمهم الواهية، في محاولته لإثبات خلاف ذلك، فراح يخرج من كنوز القرآن ونفائسه، ما فيه من حسن النظم، وعجيب التأليف... وكان لمصطلح (النظم) حضورًا بارزًا في كتابه، وذلك في حوالي ست مواضع.⁽³⁾

(1) الجاحظ، الحيوان، ج1، ص111

(2) ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص75.

(3) ينظر: ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص04-11-20-23-68-182.

وعلى هذا يكون الجرجاني والخطابي قد أفادا من ابن قتيبة في تطوير وتمخض فكرة النظم، إذ أنه عدّها وجهًا من وجوه الإعجاز، فحاز له السبق بإثارة الفكرة وبلورتها، ليأتي بعده دور عبد القاهر في البناء والتأسيس.

7.2. أبو الحسن علي بن عيسى الرّماني (ت 386هـ):

الرماني كغيره من العلماء الذين سبقوه، كان له نصيب في التلميح ولو بإشارات عابرة، وذلك في مستهل كلامه عن التلاؤم، إذ تناول فيه الجانب الصوتي للحروف وكيفية ترتيبها، وماله من أثر في خفة اللفظ على اللسان، ووقع عذب على السمع، فتتلقفه النفس بكل معانيه. ومن هذا المنطلق يظهر تعرضه للنظم من جهة التلاؤم، وقريب من هذا ما ورد عنده من عبارات تقترب من النظم، كدلالة التأليف، وتعديل النظم... ونحو ذلك.

كما ساق الرماني في كتابه النكت نماذج بين على ضوءها أهمية النظم والطريقة التي جاء على نسقها القرآن الكريم، وهو يرى أن مجال التفاضل يظهر أكثر في معاني التأليف والنظم، الذي لا حصر ولا عد له إذا ما قورن بمعاني مفردات الألفاظ، ففرق من خلالها بين ضروب الكلام لدى البشر، شعراً كان أو نثراً، وبين النمط الفريد الذي جاء القرآن عليه، وعلى أساسها قسم البلاغة إلى طبقات ثلاث؛ أعلاها ويمثلها بلاغة القرآن الكريم، ثم تليها طبقة البلغاء والفصحاء، وما دونهما الطبقة الدنيا.⁽¹⁾

ومما سبق ذكره عن هؤلاء الأعلام، نحاة أو بلاغيين، يتبين من خلال تتبع بعض ما جاء في كلامهم عن قضية النظم - قبل الخطابي - أن الكلام عن النظم وتحديد مفهومه عبارة عن جملة من التراكمات المعرفية لها اتصال بقضية النظم تلميحاً أو تصريحاً أو، تنظيراً أو تطبيقاً، والذي يغلب على الظن أن الإمام الخطابي قد استمدّ معارفه ممّن سبقوه واستفاد ممّا قدّموه في هذا الباب .

3. أركان الكلام عند أبي سليمان الخطابي

وبعد أن توصل الخطابي إلى كون القرآن معجزاً من جهة بلاغته، مضى يحدد أشكاله الثلاثة التي جاء عليها، وهي على النحو الآتي:

القسم الأول: والمتمثل في البليغ الرصين الجزل، وقد حوى هذا النوع من الألفاظ والكلمات القوية، التي تهتز لها القلوب لما لها من وقع شديد، وهذا ما يتناسب مع جو الآيات، التي فيها من التقريع والترهيب والزجر، والتي تحمل معاني العذاب، والحساب، والموت وشدائده، وما إلى ذلك.

القسم الثاني: الفصيح القريب السهل، وهذا ما نجده بين المنزلتين، (الجزالة والطلق الرسل).

القسم الثالث: الجائز الطلق الرسل، وهو ما اشتمل على الألفاظ الرقيقة، ذات المعاني اللينة، التي ترمز إلى الرحمة والمغفرة، واستجلاب القلوب واستعطافها، كالخطابات المتعلقة بالأنبياء والمرسلين، وعباد الرحمان المؤمنين.

(1) ينظر: الرماني، النكت في إعجاز القرآن، ص 94-95-96.

وبهذا رأى الخطابي القرآن معجزاً، ومتفوقاً على سائر الكلام والبلاغات، فلا يمكن لأي كلام غيره مهما وصل إلى قمة البلاغة أن يحوي هذه الأنواع الثلاث مجتمعة، إلا أن توجد متفرقة، وهذا باختلاف طبائع الناس وأمزجتهم والبيئة التي ينتمون إليها، فالذي أراد بقصيدته الهجاء، فإنه يعتمد إلى اختيار ما يناسبها من العبارات القوية الجزلة، في حين أنك ترى الذي يبني قصيدته على الغزل أو ما شابه، فإنه يختار من الكلمات الرقيقة التي تلامس القلوب، وهكذا يسير الشعراء والبلغاء على هذا النهج والنمط من الكلام، كل على حسب أحواله والأغراض التي يرمي إلى تحقيقها، أما أنك تجدها مجتمعة في كلام واحد، فلا يتحقق ذلك إلا في كلام الحكيم الخبير، العالم بأحوال خلقه، فحصل له بذلك من الفخامة والعذوبة، التي هي نتاج الجزالة والسهولة، فتجده يخاطب العقل والعاطفة في آن واحد، والبدوي والحضري، والمرأة والرجل، والصغير والكبير، ولا يكون هذا إلا للقرآن، في حين تجد العربي يختار أحد الطريقتين إما أن يخاطب هذا أو ذاك؛ لأنهما فيما يرى كالمضادين، ولكن بلاغة القرآن كان لها من كل لون نصيب، وكل واحد منها في مكانه المقدر له، والذي يزيده حسناً وبياناً.

فالحطّابيّ يرى أنّ أقسام الكلام تقوم على ثلاثة أركان رئيسيّة، وبها يكمن سر إعجاز القرآن في بلاغته وما تفرّد به نظمه العجيب الذي حير العقول وأسر القلوب وشغف الأسماع، وهي لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم، وهذا الأمر الذي أوقع البشر في العجز عن الإتيان بمثله، برغم التحديات التي وجهت لهم في أكثر من موضع ومناسبة، ولكنهم عجزوا، ومرد ذلك كما يراه الخطابي إنما يعود بداية إلى قصور علمهم ومحدوديته، في حين أن علم الله محيط بكل شيء، أضف إلى ذلك أنهم لم يستوعبوا جميع ألفاظ اللغة العربية ومسمياتها، فغاب عن أذهانهم الكثير، وما ألموا به غيض من فيض، فكان هذا السبب الأول في عجزهم، وزيادة على ذلك فإن معرفتهم بمعاني الألفاظ محدود وضيق، فالواحد منهم قد يعلم اللفظ، ولكن لا يمكنه أن يدرك جميع معانيه التي وضعت لأجله، لاسيما في الأسماء المشتركة، ألا ترى أن لفظ (الحميم) قد نستعمله للدلالة على الماء المتناهي في درجة الغليان، كما أنه يستخدم بمعنى الصديق المقرب، وقس على ذلك من المعاني المختلفة، ولو تصورنا أن علمهم قد استوفى جميع الألفاظ والمعاني، فهذا تصور غير ممكن بأي حال من الأحوال؛ لأنهم بشر يعترتهم العجز والقصور، فهل يمكن لمن لم يحط علمه باللفظ والمعنى أن يستوفي جميع أنواع نظمه، والحال أن النظم رباط بينهما، وهذه هي النظرية التي بنى عليها الخطابي مناط الكلام وأسسها، وبها قام الإعجاز وتحقيق، وهي اللفظ والمعنى، وهما العنصران الأساسيان في كل جملة، ولابد لهما من رباط ينظم بينهما، وإلا فسد الكلام.⁽¹⁾

كما أن الخطابي في سياق حديثه عن الأسس المركزية التي يقوم عليها الكلام، يشير إلى أمر لا يقل أهمية، وهو حقيقة الأسلوب، والذي به يتميز كلام عن كلام، ويختلف به غرض عن غرض، فلو أنك

(1) ينظر: المرجع السابق: ص 27.

عقدت موازنة ومقارنة بين شعر الأخطل والأعشى في وصف الخمر، أو بين شعر النابغة وأبي داود الإيادي في نعت الخيل، فإنك ترى كل واحد منهم يدلي بدلوه، فيظهر عندها من هو الأبلغ والأفصح والأدق في بابه، ويرجع المعيار في ذلك إلى حسن الأسلوب وجودته، وبلوغ المعنى ودقته، وهذا ما سعى الخطابي إلى بيانه في ثنايا رسالته في الإعجاز، وهو بذلك لا يولي أهمية للفظ وحده، كما هو الحال عند الجاحظ الذي هو على رأس النقاد الذين احتفلوا بالألفاظ ومن سلك دربه⁽¹⁾.

وأيضاً نجده لا يعطي الأهمية للمعنى وحده، كما هو الحال عند أنصار المعنى، أمثال أبو عمرو الشيباني (ت 206هـ) والآمدي (ت 371هـ) وغيرهم، ممن يولون أهمية للمعنى على حساب اللفظ⁽²⁾، ولكن الخطابي حاول الجمع والتوفيق بينهما.

فالخطابي - نلاحظ من كلامه السالف الذكر - يرى بأن السر يكمن في نظم القرآن، والنظم هو وجه رئيس من وجوه إعجاز القرآن الكريم، إضافة إلى حلقي الوصل لذلك الرباط (اللفظ والمعنى)، فمثله كمثل الخيط الذي ينسج بينهما، ليخرج الكلام في ضوء هذه الأعمدة الثلاثة في أبهى صورته. وبهذا توصل الخطابي في بيانه للسر البلاغي في الإعجاز القرآني إلى وضع نظريته في الكلام، حيث يقول: «وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم»⁽³⁾.

ونرى أن الخطابي بنظرته الثاقبة لحقيقة النظم قد ميز بين النمط الذي جاء عليه القرآن وبين غيره من الكلام، لتفرده بأسلوبه الخاص ونظمه المحكم الذي يسير وفق ثلاثية متوازنة، لفظ، ومعنى، ونظم، ولذا يرى الخطابي أن هذه المزايا الثلاث توجد على التفرق، فلا يمكن لمخلوق، وإن بلغ الغاية في الفصاحة والبيان أن يستمر كلامه على مستوى واحد من التفوق طوال حياته، ولكن يوجد اختلاف في كلامه⁽⁴⁾. ومما سبق بيانه نتوصل إلى القول بأن الخطابي قد جعل النظم مداره قائماً على البلاغة، وأن القرآن الكريم بذلك تميز عن بلاغات البشر، وقد حقق الإعجاز الذي عجز عنه البشر قاطبة، وأركانه في الثلاثية المتلازمة: اللفظ، والمعنى، والسلك الذي يربط بينهما، وهذا دليل واضح على أسبقيته في الكلام عن قضية النظم التي ارتبطت بالجرجاني، وليس كلامه مجرد إشارة خاطفة، أو لمحة مقتضبة، وإنما تطرق للموضوع بشكل موسع، اطرده بيانه جل الرسالة، وبمنهج علمي ينبئ عن فكر صاحبه العميق، والأدلة على ما أوردناه في هذا الباب كثيرة في كتابه، لكن سنحاول أن نقدم عصارة ما تضمنته فيما سيأتي بيانه:

(1) ينظر: المرجع السابق: ص 65.

(2) ينظر: المرجع نفسه، ص 196.

(3) المرجع نفسه، ص 27.

(4) ينظر: المرجع نفسه، نفس الصفحة.

يقول في سر الإعجاز: «ولا تكتمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظم التي بها يكون اتئافها وارتباط بعضها ببعض...»⁽¹⁾

ويؤكد الخطابي في أكثر من موضع من رسالته أن سر البلاغة في إعجاز القرآن لا يقتصر على اللفظ وحده، الذي هو جزء من التركيب، وأحد أعمدة الكلام، وإنما يكتمل الأمر معه بالمعنى الذي هو جوهره، وبالنظم الذي يؤلف بينهما.⁽²⁾

4. النظم القرآني بين الخطابي والجرجاني

كان للخطابي نظرة متطورة ومتعمقة في قضية النظم، حيث كان له فضل كبير في تمهيد الطريق أمام عبد القاهر الجرجاني لإخراج نظرية النظم في صورتها النهائية المحكمة المعالمة، فقد جعل النظم من عناصر الكلام الثلاثة التي سبق ذكرها، وهي: الألفاظ الحاملة، والمعاني القائمة، والسلوك الناظم بينهما. والمتضمن في كلام الخطابي يلمح أن ما جاء به نقطة مركزية تقترب مما قامت عليه نظرية النظم فيما بعد، ولبيان ذلك سنحاول في هذا المحور تسليط الضوء على أبرز النقاط التي يتقارب فيها الفكر أبي سليمان الخطابي وفكر عبد القاهر الجرجاني.

1.4. اتفاقهما على أن إعجاز القرآن في نظمه:

يرى الخطابي كغيره من العلماء أن إعجاز القرآن من جهة بلاغته، غير أنه لم يقنع بما وصلوا إليه من كانوا قبله؛ لأنهم لم يعللوا الكيفية التي منها وقع العجز، ولم يصدروا عن رأي، وإنما كان رأيهم من باب التقليد وضرب من غلبة الظن دون تحقق وتبرير مقنع، فأرجعوا الأمر إلى الذوق وحده، دون أن يضعوا أيديهم على عين حقيقته التي غابت عنهم، فالخطابي اتفق مع سابقيه في كون إعجازه من جهة بلاغته، ولكن اختلف معهم في تحديد ماهيته، ورصد مواطنه، وكشف أسرارها، فمثلهم كمثل الذي حام حول الكنز، ولم يضفر به، ولعل مرد ذلك إلى محدودية نظر كل واحد منهم، وقصور تصورهم لجوهر إعجازه.⁽³⁾

فجاء الخطابي لينطلق من حيث توقفوا، ويزيل اللثام عما أبهموا، ويكشف السر الدفين وراء حيرتهم وترددهم، فهو لم يكتف بما قالوا، بل تميز عنهم في بيان العلّة ومكمن الإعجاز على الوجه الأخص، فجسد حقيقة مفهوم الإعجاز بالنظم والتأليف في أوضح صورة وبيان على ما كان عليه الأمر قبله، ولعل ما يحتج به لذلك تلك الموازنات التي عقدها في كتابه بين الأسلوب والنمط الذي انفرد به القرآن الكريم وبين أسلوب الشعر العربي، فتوصل إلى جملة من الملاحظات الدقيقة، مفادها أن للنظم القرآني

(1) المرجع السابق، 27.

(2) ينظر: المرجع نفسه، 36.

(3) ينظر: الخطابي: بيان إعجاز القرآن، ص 21.

خصوصية لا نظير لها، فكان كلامه تصريحاً بعد تلميح، إذ يقول: «إنما صار القرآن معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف، مضمناً أصح المعاني»⁽¹⁾. فهو يرى أن الإتيان بهذه الأمور مجموعة في أحسن صورة وهيئة معينة حتى تخرج في أجود اتساق ونظام، أمر لا تطبيقه قوى البشر، وتعجز عنه، وذلك لعدم إدراكهم جميع أوجه نظومه، التي بها يرتبط بعضها ببعض، وينعقد بعضها على بعض، وهذا ما جعلهم حيارى لا حراك لهم أمام سلطان بيانه وبنائه.⁽²⁾ فهو يرى أن الجمع بين هذه الأمور في أحسن صورة وهيئة حتى تنتظم وتتسق، أمر تعجز عنه قوى البشر، ولعلنا نورد مثلاً لذلك من جملة الأمثلة التي ساقها في سياق رده على الانتقادات التي وجهت للقرآن الكريم من قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾⁽³⁾ ذلك أنهم ادعوا أن الذي يناسب الزكاة هو الإعطاء والإيتاء والأداء...، نحو قولنا: أدى الغني زكاة ماله وأعطاه وآتاه، وأنكروا أن يعبر عن ذلك بالفعل على نحو ما جاء في الآية، وما دعواهم الباطلة إلا لفرط جهلهم بأساليب وأفانين القرآن الكريم ودقة معانيه ونظمه العجيب؛ لأن استعمال القرآن للفظ (فاعلون) عن غاية مقصودة لا تتحقق إلا بهذا التأليف وعلى هذا المنوال، وهي إفادة العطاء المستمر الدائم فصار أداء الزكاة عندهم ليس مجرد تأدية فحسب بل هو فعل ملازم ودائم، ولا يتأتى ذلك إلا بمجيء العبارة على هذا النسق والنمط، لفظاً ومعناً، ولذا كانت هذه الكلمة لا غيرها؛ لأنها هي الأولى والأبلغ.⁽⁴⁾

فمن خلال حديثه عن وجه الإعجاز في القرآن - وذلك في رده إلى البلاغة عامة، وإلى أهم وجوه النظم خاصة - فإننا نلمح تقارباً في وجهة نظره مع عبد القاهر الجرجاني، الذي ربط بدوره نظرية النظم بفكرة الإعجاز، وذلك بإبرازه دقة النظم واختلاف مستوياته، انطلاقاً من النص القرآني الذي يتعذر على أي بشر الإتيان بمثله، وذلك بآيات تظهر عجز الإنسان عن الإتيان بنظم يوازي النظم القرآني، فهو معجز بلفظه ومعناه وتركيبه ودلالته.

فالجرجاني بين الإعجاز اللغوي للنص القرآني عند شرحه لأسس نظرية النظم موضّحاً الفروق الدلالية للتراكيب اللغوية والأبواب النحوية، كالتقديم والتأخير والحذف، والفصل والوصل... وذلك بعدم التفريق بين النحو والبلاغة في دراسة التراكيب اللغوية المختلفة من خلال ربط الأبواب النحوية بالمقام الذي أنشئت فيه... فكان النص القرآني المنطلق والأساس في شرح نظرية النظم وربطها بفكرة الإعجاز⁽⁵⁾، إذ نجد ذلك في شرحه لقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ

(1) المرجع السابق، ص 27.

(2) ينظر: المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

(3) المؤمنون: 4.

(4) ينظر: أبو سليمان الخطابي، من لطائف بيان إعجاز القرآن، جمعه، ص 20.

(5) ينظر: فائزة سيدي موسى وإيمان سيدي موسى، النظم عند عبد القاهر الجرجاني وعلاقته بالإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، ص 21.

وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ⁽¹⁾، فيبين في الآية الكريمة مكنن الإعجاز وتجليه من جهة نظمه العجيب في ذلك الترابط البديع بين أجزائها وتلاحم كلماتها، الأمر الذي بعث فيها من الحسن والجمال، نتيجة التفاعل الحاصل من ملاقة الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة وهكذا إلى آخر السلسلة، شأنها شأن العقد الجميل بتراصف حبات اللؤلؤ فيه واحدة بجانب الأخرى فيحصل لها الحسن والجمال بمجموعها لا انفرادها، كذلك الحال في ألفاظ القرآن الكريم، إذ أن المزية والشرف للفظ يتحقق بانتظامه وتآلفه مع ما قبله وبعده، فلو أنك انتزعت كلمة من الآية (أرض، سماء، ابلعي، أقلعي...) ونظرت إليها بمفردها دون أخواتها لما أدت من الفصاحة والبيان الذي كانت عليه في موقعها السابق؛ لأنها كلمات معلومة عند العرب لا غرابة فيها، فالقضية إذن أعظم من ذلك، وهل يعقل أن يأتي الجرجاني بهذه الآية لمجرد كلماتها أو معانيها المفردة؟ بل لأمر أهم وأبلغ، إذ يتمثل في تلك الصورة المنتظمة البنيان في مجموع أطرافها بمختلف صيغها وأشكالها وأزمانها وما إلى ذلك، إلى أن ختم عبد القاهر كلامه بقوله: «أفترى لشيء من هذه الخصائص التي تملؤك بالإعجاز روعة وتحضرك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها تعلقاً باللفظ من حيث هو صوت مسموع وحروف تتوالى في النطق؟ أم كل ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب؟»⁽²⁾.

بعد عرضنا لرأي الإمامين - الخطابي والجرجاني - حول فكرة الإعجاز القرآني نرى اتفاقهما على أن أحدى وجوه إعجاز القرآن تكمن في بلاغته ونظمه الفريد، فكان جوهر إعجازه داخلاً فيه من ناحية البلاغة والنظم وليس خارجاً عنه. فما أورده الخطابي كان تمهيداً لما جاء به الجرجاني بعد ذلك، وقد صرح به في ثنايا نظريته المشهورة.

2.4. مركزية رأي الخطابي في تأسيس نظرية النظم عند الجرجاني:

من خلال التّصوّر الذي خرج به الخطابي بعد تحديده لطبقات الكلام؛ البليغ الرّصين الجزل، والفصيح القريب السّهل، والجائز الطّلق الرّسل - نلاحظ أنّه قد حصر الكلام في ثلاثة أقسام، اللفظ والمعنى، وهما بمثابة الحدين الذين يجمع بينهما النظم.

وبهذا يفصح الخطابي عن رأيه الصّريح في الإعجاز، وهو أنّ القرآن معجز بنظمه، ومما يزيد من جمال وروعة هذا النّظم انسجامه وملاءمته للموضوعات المختلفة التي يحفل بها القرآن الكريم، من بيان الحلال والحرام، والمباح والممنوع، والدعوة إلى طاعة الله تعالى وامتنال أوامره، وإرشاده إلى مكارم الأخلاق،

(1) هود: 44.

(2) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص 40.

والنهي عن مساوئها، وهذا هو كلام العليم القدير، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومما يزيد الأمر رونقاً وجمالاً أنك ترى كل واحد منها مستقر في مكانه الذي جعل له ولا بديل سواه.⁽¹⁾

فالخطابي بنى نظريته على أسس رئيسية، وهي اللفظ والمعنى والنظم، ويظهر من خلال هذه التركيبة الثلاثية التي نادى بها، أنّ النظم عنده هو تلك الصلة التي تجمع بين ثنائية اللفظ والمعنى باعتبار الأول وعاء للثاني، وبهذا جمع الخطابي ولم يفصل، ولم يهتم بجانب على حساب الآخر، ومن ثمّ حاول إيجاد صيغة تبرز التفاعل الإيجابي بينهما، وتخدم البعد الدلالي للكلام، ولا يكاد الخطابي يذكر اللفظ والمعنى إلا وأردفه بذكر النظم، وفي هذا تأكيد على الصلة المتينة بين هذه الأصول الثلاث، وأنها لم توجد مجتمعة إلا في كلام الحكيم الخبير، وبها انقطع السبل عن خلقه في جمع شتاتها.

وعليه، فالنظم الذي عناه عبد القاهر إنما هو عبارة عن عملية ذهنية، تتم بترتيب المعاني في النفس، ومن ثم يأتي ترتيب الألفاظ والكلمات في النطق، وبوضع كل كلمة في منزلها الخاص بها.⁽²⁾

والجرجاني في رحلة بحثه عن وجه الإعجاز القرآني تساءل عن الشيء الذي أعجز العرب، هل كان من جهة لفظه أو من جهة معناه؟ فلا شك أنّ ما أعجز العرب هو تلاقي اللفظ والمعنى معاً، فلا مجال للإعجاز في لفظ دون معناه، ولا في معنى دون لفظ معبر عنه، فالإعجاز عنده هو تلك العلاقة التكاملية بين اللفظ والمعنى لينتج عنها التركيب المناسب، وبحسب حال المخاطب.

وبهذا لو نظرنا نظرة تأمل وتفكر في قول الخطابي وقول الجرجاني في الإعجاز لخلصنا إلى تقارب الرأيين من جهة المنطلق أولاً في البحث عن الوجه المختار للإعجاز، إضافة إلى ردهما للوجوه الأخرى كالقول بالصرفة، والإخبار عن الأمور الغيبية... فضلاً عن اتفاقهما في الوجهة البلاغية من حيث النظم والأسلوب القرآني، أما الخطابي فقد جعل المزية بتواجد الأركان الثلاثة؛ اللفظ والمعنى والنظم، وأنّ تحقق الإعجاز في مجموعهم، غير أنّ الجرجاني فصل القول فيما أجمله الخطابي ورجّح كفة النظم المتضمن العنصرين السابقين (اللفظ والمعنى)، فأخرج من بينهما نظريته المشهورة وجعل دلائل إعجازه عليهما.

3.4. قضية اللفظ والمعنى عند الخطابي والجرجاني

يرى الخطابي أنّ المزية لا تعود للفظ وحده ولا للمعنى وحده، ولكنها تنتظم في الاثنين معاً، فالكلام عنده يقوم على الأركان الثلاثة التي سبق وأن ذكرناها - النظم واللفظ والمعنى - فلا فضل عنده بين اللفظ والمعنى، ولا يهتم بأحدهما على حساب الآخر، بل يقول بالجمع بينهما عن طريق النظم، ذلك النظم الذي يظهر فيه تفاعل اللفظ مع المعنى للتعبير عن التجربة الفنية، والذي من خصائصه تهذيب الألفاظ وإخضاعها للسياق ومقتضى الحال الذي يراعي ظروف الكلام والمتكلم، والمعاني التي أريد التعبير عنها⁽³⁾.

(1) ينظر: الخطابي، المرجع السابق، ص 27.

(2) ينظر: عبد القاهر الجرجاني، المرجع السابق، ص 46.

(3) ينظر: نبيل رباح أبو علي، نقد النثر في تراث العرب النقدي حتى نهاية العصر العباسي 656هـ، ص 42.

ولئلا يلتبس لدى متوهم عند سماعه قول الخطابي في شأن الألفاظ، وأنها هي العمدة، من حيث أنها حوامل المعاني وظروفها، فقد سارع مباشرة في إبراز مكانة وقيمة المعنى والنظم معاً، فأما المعنى عنده لا يقل شأنًا عن اللفظ، لأنه روح اللفظ وكنهه، وإدراكه ليس بالأمر الهين؛ لأنه وليد الفكر، وثمرته العقل والفهم، وبه يتوصل إلى اللفظ المبين عنه، والأمر في تحصيله أشد، وكل واحد منهما يكمل الآخر ويخدمه، فالعلاقة بينهما تكاملية، والحاجة لبعضهما إلزامية، ولتتم عملية الكلام على أكمل وجه، وأحسن صورة لابد لهذين العنصرين من خيط يربط بينهما، ألا وهو النظم الذي عليه مدار الشرف وبه تحصل الفضيلة، ولا يدركه إلا من له فهم سليم وتذوق جميل، كيف لا؟ وهو الذي يمثل زمام الأمر في علاقة اللفظ بالمعنى، ويصنع ذلك التلاؤم والتآلف، والذي منه يتشكل البيان، وبهذا التضافر والتجانس تتحقق بلاغة الكلام، التي هي سنام الإعجاز القرآني⁽¹⁾.

فالخطابي يختلف عن سابقيه من العلماء، حيث أنه لم يعط الأولوية في نظم الكلام للمعنى على حده، ولا لللفظ على حده، بل يرى بجمعهما من خلال رباط ينظم بينهما، فلا تفرقة عنده لكليهما، فيقول: «ولم نقتصر فيما اعتمدناه من البلاغة لإعجاز القرآن، على مفرد الألفاظ، التي منها يتركب الكلام، دون ما يتضمّنه من ودائعه، التي هي معانيه، وملابسه، التي هي نظوم تأليفه»⁽²⁾.

هذا ما كان من فحوى كلام الخطابي حول قضية اللفظ والمعنى التي طالما شغلت بال المفكرين والبلاغيين واللغويين قبله وسطرتها أقلامهم وزخرت بها مصنفاتهم بين مناصر اللفظ تارة، ومناصر المعنى تارة أخرى، فكان الخطابي ممّن جمع بين القولين، ورأى بأن صرح البلاغة القرآنية قائم على ترابط اللفظ والمعنى بسلك النظم، حتى أنك تراه إذا ما حاول وصف بلاغة القرآن ووجه إعجازه ذكر العناصر الثلاثة دون تحيز أو تخير، من ذلك قوله: «وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشدّ تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها»⁽³⁾، والمتأمل لكلامه يلحظ نظرتة الشمولية للأركان الثلاثة وحرصه على الجمع لا التفرق بغية إبراز مزايا الكلام، وهذه الفكرة العميقة التي طرحها الخطابي نعدّها تمهيداً لما ساقه الجرجاني فيما بعد..

(1) ينظر: المرجع السابق، ص: 36.

(2) الخطابي، المرجع السابق، ص 36.

(3) الخطابي، بيان إعجاز القرآن، المرجع السابق، ص 27.

استطاع الجرجاني بذوقه الرفيع، وحسه الأدبي المتميز أن يعلل بالأدلة العلمية، والتحليلات الدقيقة أنّ الفضل لا يعود للفظ المفرد وحده، ولا للمعنى العام الذي يشترك فيه كل الناس، وإنّما عقد كل اهتمامه على النظم الذي يؤلف بينهما بطريقة لغوية دقيقة، وهو يرى بأن أمر الفصل بينهما من باب الاستحالة؛ لأن مرد نظرية النظم قائم على حسن الصياغة، وتوخي معاني النحو، وذلك بتوظيف هذين العنصرين معاً، فلا يمكن لأي متكلم أن يسوق كلامه إلى السامع إلا إذا فكر أولاً في المعاني ورتبها وهذبها في عقله، ثم كساها ثياب الألفاظ المبينة عنها، وعلى هذا يكون توجه عبد القاهر توجهاً عقلياً، فالنظم عنده ليس مجرد تلاقي الألفاظ إثر بعضها في النطق، وإنما الأمر أدق من ذلك، فهو التناسق الحاصل بين معانيها ودلالاتها، وعلى هذا يكون اللفظ تابع للمعنى وخدام له⁽¹⁾.

فعبد القاهر الجرجاني يرى أنّ اللفظ هو رمز لمعناه، وهذا ما يؤكده في رسالته الشّافية، إذ يرى أنّه لكل معنى لفظ خاص به، ونوع من العبارة التي يقوم بتأديتها على أكمل وجه، وأجلى صورة، وسبيله إلى الفهم أصوب، وللقبول أدعى، والسّمع له أوعى، والنّفس إليه أرغب⁽²⁾.

4.4. المقاربة بين مفهوم النظم عند الخطابي والجرجاني:

الخطابي لم يكن حديثه عن النظم مجرد إشارات عابرة، بل نجده يبيّن رأيه في المعنى المراد بالنظم وصعوبة بناء الكلام على وجه فيه مستقيم، وهذا ما رمى بالشعراء وأباب البلاغة في بحر العجز عن معارضة القرآن، برغم أنه جاء بالكلمات التي يتلفظون بها، وينسجون على ضوءها أشعارهم، وخاطبهم بمعانيه التي يفهمونها، والحال أنهم كانوا أهل بلاغة وفصاحة وبيان، فالعلة إذا ليست في تحصيل الألفاظ والمعاني على حده، وإنما هو مرتبط بتألف الألفاظ، وانتظامها على نسق لم يعهد له مثيل، وفي مواضعها المقدرة لها، محملة بمعانيها التي قصدها المخاطب، وهذا هو الذي أراده الخطابي ونافع عنه، وبين موطن الإعجاز فيه⁽³⁾.

وحين نتأمل هذا الكلام نجده يقترب من مفهوم النظم الذي أشار إليه عبد القاهر الجرجاني، وجعله أساس بحثه في الإعجاز البلاغي؛ لأنّه يعني الرّوابط بين الكلمات والجمال، وليس هذا إلاّ توخي معاني النّحو كما عبّر عنه عبد القاهر⁽⁴⁾.

فالعالم الخارجي تتشكّل صورة في النّفس، ثمّ تترتب هذه المعاني ألفاظاً متّسقة متألّفة منتظمة، يمسك بعضها بعضاً، وهذه رؤية الخطابي لطبيعة التّكامل بين سياق الحال، وهي المعاني التي يريد المتكلم إيصالها في أحسن صورة للمتلقى، وسياق اللّغة المتمثل في الألفاظ، التي سيعبر بها عن ما يجول في

(1) ينظر: عبّود خليفة، قضية اللفظ والمعنى في الميزان الجرجاني، ص 160.

(2) ينظر: عبد القاهر الجرجاني، الرّسالة الشّافية، ص 117.

(3) ينظر: الخطابي، المرجع السابق، ص 23.

(4) ينظر: محمد حسنين أبو موسى، البلاغة القرآنية في تفسير الرّمخشري وأثرها في الدّراسات البلاغية، ص 90.

داخله⁽¹⁾، وقريب من هذا ما جاء في مفهوم النظم عند الجرجاني، حيث يقول: «معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض»⁽²⁾. وبهذا المفهوم أوضحت فكرة النظم التي عناها عبد القاهر، ورسم على منوالها نظريته التي تقوم على مجموعة علاقات معنوية ولفظية وتركيبية مجتمعة تكمل بعضها بعضاً، كما نجده تناول الألفاظ وهي مفردة، أي قبل ضمها في التركيب من جهة، ثم بين حالها بعد دخولها في التآليف والتركيب من جهة أخرى، وما الذي آلت إليه من الصورة الجديدة التي اكتسبتها من خلال دخولها في العلاقة التركيبية التفاعلية، فحصل لها من هذا المجموع معنى لم يكن لوجود إلا بنظام العلاقات ودخولها في السياق، لذلك كان اهتمام الجرجاني منصباً حول وضع الكلمة في التركيب، وتعليق بعضها ببعض، فتعطي بذلك معنى مفيداً⁽³⁾.

وهذا الذي أدركه الخطابي أيضاً من حيث أن النظم هو الذي تحصل به الفضيلة والتفاوت بين كلام وكلام، وهو بذلك يتطلب من الناظم المهارة والدقة، وسعة اطلاع، وبعد النظر والتمعن، ما يجعله مؤهلاً لهذا الأمر العظيم، وله قدم راسخة فيه، لأنه سنام الأمر، وذروة البلاغة والكلام، وذلك أن يتلاءم أوله مع آخره، فيحصل له بذلك انتظام بديع، فترسم له بهذا الشكل المميز، وهذا النمط الخاص وقع في النفس، وأثر في القلوب⁽⁴⁾.

وبهذا يُعدّ الخطابي من الأوائل الذين أمحووا إلى فكرة النظم، والذين عَنُوا بقضية الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، وقد حاول تحليل بعض الآيات على أساس فهمه لهذه الفكرة، مبيناً أركانها الثلاثة التي اعتمد عليها فيما ذهب إليه، فكان ما توصّل إليه نقطة انطلاق لمن بعده، ومنهم الجرجاني الذي يرى أن الكلام الذي يُؤدّيهِ المتكلم، ويكون مقبولاً عند المخاطبين، لا بدّ له من ثلاثة عناصر أيضاً: اللفظ والمعنى والنظم.

فاللفظ هو مجموع الكلمات والحروف التي ينطق بها المتكلم، ويسطرها الكاتب، وأمّا المعنى فهو ذلك الشيء الذي نحس ونشعر به داخلنا من الإعجاب والمدح والغضب والدهشة... فيشكل عالماً داخلياً في نفوسنا ووجداننا، وهو يحتاج إلى كلمات للتعبير عنه، وإيصاله في أحسن صورة للمتلقّي والسامع، فاللفظ وسيلة يعبر بها المتكلم عن معانيه وأفكاره، وعلى هذا يكون اللفظ قالباً للمعنى، والمعنى جوهره، فإذا رأيت جمال منظر غروب الشمس، وأعجبك منظره، أو تأملت أخلاق الناس وتعاملهم، فأحببت بعضها،

(1) ينظر: خلود العموش، الخطاب القرآني- دراسة في العلاقة بين النص والسياق-، ص 59.

(2) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 7.

ينظر: غدير أحمد بن حمدان، أثر عبد القاهر الجرجاني في الدراسات البلاغية الحديثة، ص 09.

(4) ينظر: مسعود بو دوخة، نظرية النظم أصولها وتطبيقاتها، 23.

وأنكرت بعضها وما إلى ذلك من المعاني المستقرة في نفسك، التي تبقى كامنة متأججة بداخلك تنتظر من ينقلها من هذا العالم الباطني إلى عالمها الخارجي، لتصل للمخاطب عبر رسائل منطوقة أو مكتوبة. والبحث في العلاقة بين اللفظ والمعنى، وأنها أسبق وأولى من الآخر قضية بارزة في ميدان الدراسات النقدية، وقد كانت متداولة في زمن عبد القاهر وقبله أيضًا؛ بل كانت من اعمدة تأسيس نظرية النظم، ومن هذا المنطلق كان الناس فريقين، بين منتصر لللفظ، ومنتصر للمعنى⁽¹⁾. ولكن الجرجاني لم يقف عند هذين العنصرين، بل رأى أن هناك عنصرًا ثالثًا لا بدّ من مراعاته، ليؤدي الكلام غرضه صحيحًا مقبولًا، وهذا الذي أبرزه عبد القاهر، وجدنا من العلماء قبله من يشير إليه وينبّه عليه، كأمثال الخطابي، إلا أن عبد القاهر بلغ الغاية بما بيّن فيه وفصل، ونظر وطبق.

ولا بأس أن نعطي نموذجًا لرؤية الخطابي لتلك العلاقة التي تشكّل النظم القرآنيّ عنده من خلال تحليله لبعض الآيات القرآنية، فقد انطلقت فكرة النظم عنده من اختيار الكلمة، ووضعها في المكان المحدد لها، ليمتد الأمر إلى أوسع من ذلك، وهو معالجة نظم الكلام الكلي وتراكيبه، وتحديد طبيعة العلاقات التي تربط بين السابق واللاحق، وما الذي جعلها في سياق واحد، من ذلك قوله تعالى: ﴿لَا تَحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتُجْعَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾⁽²⁾. فقد سُبقت هذه الآيات مباشرة بقوله جلّ شأنه: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾⁽³⁾.

ففي النظرة الأولى لا يبدو أن هناك رابطًا أو جامعًا يربط بين هذه الآيات المتتالية، ولا يتبين وجه العلاقة بينها؟ ثم لا تلبث أن تعثر على ما يبرر هذا التلاؤم والتأليف الحاصل بين أوله وأوسطه وآخره، وهذا من بديع التناسب الذي يقع في آيات الذكر الحكيم، سواء ما تعلق بضم كلمة إلى أختها، أو ما كان بين العبارة والعبارة، والجملة مع الجملة، فإنك ستهتدي لا محالة إلى ما وراء هذا السر العجيب، وهو إحاطة علم الله تعالى بكل شيء، يقول ابن القيم: «أسرار مفردات ومركبات القرآن، فوق عقول العالمين»⁽⁴⁾، وهذا ما جعل الخطابي يقف عند أواصر هذه العلائق، وذلك أن الله تعالى ابتداءً نهى نبيه - ﷺ - عن الانشغال عن سماع الوحي بتحريك لسانه بالقراءة خشية النسيان، فبين عندها موقع هذا الكلام، وأنه بمثابة الجملة الاعتراضية، فكانت تنبيهًا وتذكيرًا لأمر ضروري ملح وجب ذكره في أوانه، وهذا الأسلوب غالبًا يستخدم للتنبيه وتذكير السامع بضرورة الإقبال بأذن صاغية، وقلب حاضر، لأن لا يفوته شيء من الكلام، ثم تسترسل في حديثك وتربط الكلام ببعضه ببعض، من غير أن يكون هناك بتر أو قطع

(1) ينظر: فضل حسن عباس، إعجاز القرآن، ص 76.

(2) القيامة: 16-19.

(3) القيامة: 15.

(4) ابن قيم الجوزية، جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام، تح: شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، ص 233.

في الكلام، أو خروج عن سياق الكلام؛ لأنه جاء مطمئناً للرسول ﷺ بحفظ القرآن له في صدره وجمعه، وهكذا الحال كله مع ترابط وتآلف الآيات في نظام واحد محكم يفوق مدارك وأفهام البشر⁽¹⁾.

وإن كان الخطابي أيضاً قد ألمح لما يراه الجرجاني في مفهوم النظم بالطريقة المخصوصة، فهو يراه صورة للفظ المتفاعل مع المعنى للتعبير عن التجربة الفنية، وليس للألفاظ وحدها ولا للمعاني أهمية للنظم، وهو يتفق مع طبيعة الأسلوب، لأنه يصبح بذلك الترجمة الصادقة لما تنفعل به النفس، ولهذه الترجمة أن تتصور وتتشكل بما يكسب التعبير قوة وقرراً من المعنى.

كما اعتمد الخطابي على نظريته في النظم، عند الرد على المطاعن التي وجهت للقرآن الكريم، والمحاولات الفاشلة في تقليده، منها ما ورد في السيرة والأخبار من محاولات مسيلمة الكذاب، حين قال: «يا ضفدع نقي ما تنقين»، وقوله: «ألم تر كيف فعل ربك بالحبلى»، إذ يرى الخطابي أن ما جاء به مسيلمة لا أصل ولا فائدة ترجى منه؛ لأنه جانب الأركان الثلاثة التي اعتمدها في بيان إعجاز القرآن، فلا اعتدل له لفظ، ولا استقام له معنى، ولا انتظم له كلام، ولا انسجام فيه شكلاً ولا مضموناً، وإنما هو مجرد ضم كلمات كيف ما كان، وتكلف من السجع، ولو على حساب المعنى، إذ أنه لا يستقيم الكلام في أن تخاطب الحبلى بأسلوب التهويل وتعظيم الأمر، وهي في أقصى حالات ضعفها وهونها، وهذا الصنيع من الكلام لا يرتقي به صاحبه درجة البلغاء والفصحاء، وما قام به مسيلمة لم يكن في حقيقته إلا ضرب من التقليد الفاشل.

إن الذي جاء به مسيلمة وأمثاله كان من جملة المعارضات التي وجهها للطعن في القرآن الكريم، ولكنه لم يكن في المستوى الذي يليق بالموازنات التي تقع بين البشر عادة، والتي لها أسسها وقواعدها، ومنها أن يأتي المعارض بكلام جديد، متخيراً ألفاظه الفصيحة، ومعانيه الدقيقة، وليس الأمر كما فعل مسيلمة من اقتطاع الكلمات، والنسج على منواله، من دون أن يحدث أمراً جديداً يمكنه من الغلبة والتفوق، فكانت النتيجة أن ما قام به كان حجة عليه، وعبرة سطرها التاريخ على مر القرون لمن تسول له نفسه فعل ذلك. كما يشير الخطابي إلى العناية الدقيقة بضرورة وضع الكلمة في مكانها الذي يليق بها، فبلاغة الكلم تقتضي التهدي إلى وضع الكلمة المناسبة في مكانها المناسب، كما تبدو بلاغة الكلم في مطابقة الكلام للمواقف التي يعرضها، فيقول: «ثم اعلم أن عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به، الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه: إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإما ذهب الرّونق الذي يكون معه سقوط البلاغة»⁽²⁾، ويظهر ذلك جلياً في الكلمات

(1) ينظر: الخطابي: بيان إعجاز القرآن، ص 51.

(2) المرجع السابق، ص 29.

التي تظهر عند العامة مترادفة المعنى كالحمد والشكر، والقعود والجلوس، والنعت والصفة...، ويحيلنا هذا الأمر إلى أنه لكل لفظ معناه الخاص به الذي ينفرد به عن غيره من الألفاظ ولو كان ينتمي إلى حقله الدلالي، سواء كان في حالة الأفراد أو التركيب، ومن هنا جاء الانتقاء وحسن الاختيار من حيث ضم الكلمات إلى بعضها، ولعل الفرق الجوهرى بين لفظ (الشح) و(البخل) يوضح المقصد الدقيق لما نحن بصدد، على نحو ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾⁽¹⁾، فلو فهم معنى الشح على أنه البخل لذهب المعنى المراد في الآية وهذا ما وقع مع الرجل الذي خاف على نفسه الهلاك عندما سمع الآية؛ لأنه كان شديد البخل فأرشدته ابن مسعود -رضي الله عنه- إلى المعنى الصحيح بقوله: «ليس ذاك الشح الذي ذكره الله في القرآن ولكن الشح أن تأكل مال أخيك ظلماً، ولكن ذاك البخل وبئس الشيء البخل»⁽²⁾.

وعلى هذا يكون الخطابي قد رسم معلماً لتحقيق البلاغة في الكلام، بقيامها على دعامتين رئيسيتين، وهما تحقيق المعنى وظهوره، وجمال النظم وحسنه.

وكذلك من الأسس التي أقام عليها الجرجاني نظريته في النظم أساس تخير الموقع، وذلك بمراعاة موقع الكلمة من بين أخواتها، وأن يأخذ كل لفظ مكانه الملائم، بحيث لو حوّل ذلك اللفظ من مكانه، أو أزيل ذهب الرونق وزال الجمال، وفي هذا يقول: «وهل تجد أحداً يقول: هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملائمة معناها لمعاني جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها؟»⁽³⁾. ورغم أننا نلمح تقارب الرؤى عند الرجلين من حيث مبدأ الاختيار، إلا أن تفسير الخطابي كان أميل للفروق الدلالية بين الكلمات المتقاربة المعنى أكثر منه إلى بلاغة النظم التي قصدها الجرجاني، ذلك أن الخطابي عقد المقارنة بين الألفاظ المتقاربة وكيف أن هذه لا يمكن أن تحل مكان الأخرى ولو تقارباً معنوياً؛ لأن لكل لفظ معناه الذي يميزه عن غيره، في حين نجد أن عبد القاهر يسعى إلى بيان الفرق بين المعاني التي تؤديها الكلمة ذاتها نتيجة تغير موقعها، ونمثل لذلك بكلمة (الأخدع) التي تتقلب بين الحسن والثقل بحسب مكانها في النظم، فانظر إلى قول أحدهم:

وإني وإن بلغتني شرف الغنى ... واعتقت من رق المطامع أخدعي.

فإنك ترى لها من الحسن والخفة ما لا يخفى على ذي ذوق وفهم. في حين لو نظرت إليها في هذا البيت لرأيت ما أصابها من الثقل على النفس وغاب عنها ما كان فيها من الأنس والخفة والبهجة، وهو ما جاء في قولهم:

يا دهر قوم من أخدعيك، فقد ... أضججت هذا الأنام من خرقك.

(1) التغاين: 16.

(2) الخطابي، بيان إعجاز القرآن، المرجع السابق، ص 30-31.

(3) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 38.

فلو كان الفضل والمزية تعود للفظ حال إفراده وانعزاله عن غيره لبقى على تلك الحالة من الحسن والرونق، وفي هذا دليل بين على أن المزية ترجع لموقع اللفظة من النظم واستقراره فيه وكأنه خلق لأجله.⁽¹⁾ وملخص القول في كلّ ما سبق بيانه من جهود الخطّابيّ، ودوره الأساسي في بلورة فكرة النّظم التي اكتملت معالمها على يد عبد القاهر الجرجانيّ، إنّ الخطّابيّ كان له فضل السّبق في الكلام عن النّظم وما يدور حوله، وإن كان بعض اللّغويين والبلاغيين قد أغفلوا فضله في هذا الشّأن، فإنّنا ننوّه بجهده المعترف في هذا المجال ونردّ الفضل إلى ذويه.

وخير دليل على ذلك إشاراته وكلامه الواضح في الحديث عن النّظم وأركانه، فقد أشار إلى أوّل مصطلح يكشف عن معالم نظريّة النّظم، وهو مصطلح (التّأليف) الذي تبناه عبد القاهر فيما بعد، ممّا يؤكّد أنّ كلّ أفكار عبد القاهر لم تكن جديدة، وأنّ الخطّابيّ قد سبقه إليها فضلاً عن المصطلحات التي تتعلّق بالنّظم، كمصطلح (الجوار) وكذا مصطلح (الاختيار).⁽²⁾

ومن المقاربات بين الخطّابيّ والجرجانيّ من خلال نظريّة النّظم وما تحمله المصطلحات من دلالات توجي إلى التّقارب الفكري بينهما، فائتلاف الكلم بعضها ببعض عند الخطّابيّ، يقابله: جعل بعضها بسبب بعض عند الجرجانيّ، وفي مصطلح الاختيار يعبر عنه الخطّابيّ، بقوله: «... فيتوصلوا باختيار الأفضل عن الأحسن من وجوهها إلى أن يأتوا بكلام مثله»⁽³⁾. وحين يعبر عنه الجرجانيّ، يقول: «أنّك ترى الكلمة تروك وتؤنسك في موضع، ثمّ تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر»⁽⁴⁾.

5. الخاتمة

بعد رحلة مع جهود الإمام الخطّابيّ لا تخلو من صعوبة البحث والتنقيب فضلاً عن متعة الاكتشاف والوصول في آن واحد، تبين لنا فيها بما لا يقبل الشك أن تلك الجهود الناضجة في مضمار النظم كانت بمثابة حجر السبق واللبنة الأهم التي بنى عليها الجرجاني نظريته وبلورها بشكلها الكامل، وفي ظل هذه الجهود الطيبة للخطّابي التي أخذت في بحثنا موقعها التأسيسي الصحيح لنظرية النظم الجرجانية توصل البحث إلى جملة من النتائج نسرده كما يلي :

1.5. النتائج

- أن الخطّابي كان من أقطاب البلاغة البارزين الذين تبلورت على أيديهم فكرة النظم بما استخدمه من مصطلحات لها علاقة وطيدة بها كالتأليف والارتباط والتلاؤم والتشاكل والاتساق والنظم والاختيار

(1) ينظر: الجرجاني، دلائل الإعجاز، المرجع السابق، ص 41.

(2) ينظر: نبيل قصاب باشي، نظريّة النّظم عند الخطّابيّ في معايير النّقد الحديث والنّقد الحداثيّ، ص 07.

(3) الخطّابيّ، المرجع السابق، ص: 27.

(4) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 40.

والفصاحة ونحو ذلك، فكانت بدورها تمهيداً لما أثمرته نظرية النظم التي أقام معالمها عبد القاهر الجرجاني، وهي من أدوات ومعايير اتساق النص وترابط مكوناته.

- أن الخطابي أَمَط اللجام وأزال غشاوة الغموض والتيه من خلال وضع يده مباشرة على وجه الإعجاز في القرآن وتحديد كلفيته على الوجه الأكمل، مهتدياً بذلك إلى أن أركان الكلام تقوم على ثلاثة أركان أساسية، هي: اللفظ، والمعنى، والنظم وعليها مدار الإعجاز اللغوي والبلاغي.

- أن الخطابي يرى بالعلاقة التوافقية بين اللفظ والمعنى في ظل الصراع القائم بين أنصار اللفظ وأنصار المعنى، فكان ممن جمع فأوعى، وتفنيده للمعارضات الموجهة للقرآن الكريم من جهة لفظه ومعناه ومحاولته للتوفيق بينهما خير دليل على ذلك، وهو على ذلك أسبق من الجرجاني في القول بالتآزر والتآلف، وهما العنصران الأساسيان في انبثاق نظرية النظم فيما بعد.

- كلام الخطابي عن مفهوم النظم كان أكثر عمقاً من سابقه، وذلك بين من خلال تحديده للوصفين المتميزين لأسلوب القرآن الكريم وهما كالمضادين فيما يبدو، ولم يلتقيا إلا في كلام اللطيف الخبير (الفخامة والعدوبة)، إلا أن كلامه كان مجملاً مقارنة بما قدمه الجرجاني في ضوء تأسيس نظرية النظم فقد فصل القول فيه وأوفى.

- أن إشارة الخطابي إلى مبدأ الاختيار في سياق كلامه عن الكلمات المتقاربة المعنى - وأن حسن نظم الكلام مبني على دقة اختيار ألفاظه ومعانيه - ما هو إلا تنبؤ منه إلى عنصر مهم في صياغة الكلام، إلا أن الجرجاني كان أكثر تعمقاً في طرح الفكرة التي حامت حول تخير موقع الألفاظ ولا مزية للفظ إلا في ظل سياقه وملائمته للسابق واللاحق.

- أضاف عبد القاهر الجرجاني على الخطابي في قضية النظم المعنى التحويلي من خلال تضمينه إيّاه في نظرية النظم، والذي مازج فيه بين النحو والبلاغة، مراعيًا في ذلك سلامة التركيب وما يؤديه من معان، متوخيًا بذلك قواعد النحو وأحكامه فيما بين الكلم، ومستخرجًا لما فيها من لطائف ودقائق في المعنى مع مناسبتها لمقتضى الحال.

- أن الخطابي أشار إلى الجانب الإبداعي في أركان الكلام لما يحدثه من صورة في النفس يتشكل بها البيان من انسجام وتناسق شكلاً ومضموناً، مما جعل الألفاظ حاملة للمعاني، والمعاني قائمة بها، وحسن التأليف والنظم رباط لهما، وهذا هو جوهر نظرية النظم التي أقام عليها الجرجاني نظريته مراعيًا جانب الذوق والجمال أيضاً، ليكون صنيع الخطابي إضافة جديدة في ظل ما قدمه من سبقوه.

2.5. التّوصيات:

مما يمكن التوصية به هو تشجيع الباحثين على مواصلة البحث والغوص في هذا الموضوع، وإبراز الجوانب التي لم تعط حقها الوافي من البحث والتّحصيل فيما يتعلّق بنظرية النظم وما سبقها من جهود وارهاسات كانت السّبب في ظهورها على يدي عبد القاهر الجرجاني؛ خاصّة ما تعلّق بالجانب التطبيقي

منها، ومحاولة الوقوف على ما قدّمه علماؤنا في تراثنا العريق، ولما يحتويه من معارف نفيسة وأفكار جوهريّة، كان لها الأثر البالغ في بناء ونشأة نظريّة النّظم.

6. قائمة المراجع

- ابن المقفّع، عبد الله، (دت)، الأدب الصّغير والأدب الكبير، الاسكندرية، مصر، دار ابن القيم.
- ابن بحر، عمرو (الجاحظ)، (1384هـ - 1964م)، الرّسائل، القاهرة، مصر، مكتبة الخانجي.
- ابن بحر، عمرو (الجاحظ)، (1423هـ)، البيان والتّبيين، بيروت، لبنان، دار ومكتبة الهلال.
- ابن بحر، عمرو، (1424هـ)، الحيوان، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية.
- ابن قتيبة، عبد الله، (دت)، تأويل مشكل القرآن، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية.
- أبو الحسن، علي بن عيسى (الرماني)، (1976م)، النّكت في إعجاز القرآن، مطبوع ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، مصر دار المعارف.
- أحمد بن حمدان، غدير، (2006)، أثر عبد القاهر الجرجاني في الدّراسات البلاغيّة الحديثة، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنيّة.
- باشي، نبيل، قصاب، (2010م)، نظريّة النّظم عند الخطّابيّ في معايير النّقد الحديث والنّقد الحدائيّ، مجلة جامعة عجمان للعلوم والتكنولوجيا، الإمارات، المجلد الثالث، العدد الأول.
- بو دوخة، مسعود، (2018)، نظرية النظم أصولها وتطبيقاتها، عمان، الأردن، مركز الكتاب الأكاديمي.
- الجرجانيّ، عبد القاهر، (1422هـ - 2001م)، دلائل الإعجاز في علم المعاني، بيروت، دار الكتب العلمية.
- الجرجاني، عبد القاهر، (1976م)، الرسالة الشافية، مصر، دار المعارف.
- الجوزية، ابن القيم، (1407هـ - 1987م)، جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام، الكويت، دار العروبة.
- حسين، محمد، (1998)، البلاغة القرآنيّة في تفسير الرّمخشريّ وأثرها في الدّراسات البلاغيّة، مصر، مكتبة وهبة.
- حمد، بن إبراهيم الخطّابي، (1976): بيان إعجاز القرآن، مطبوع ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، مصر، دار المعارف.
- حمد، بن إبراهيم الخطّابي، (دت)، من لطائف بيان إعجاز القرآن، جامع الكتب الإسلامية.

- خالد رباح أبو علي، نبيل، (1993)، نقد النثر في تراث العرب النقدي حتى نهاية العصر العباسي 656هـ، الهيئة المصرية للكتاب.
- خليفة، عبود، (دت)، قضية اللفظ والمعنى في الميزان الجرجاني، مجلة حوليات كلية الآداب واللغات جامعة طاهري محمد يشار، العدد الخامس عشر.
- الدوري، حسان، (2020)، المصون في الأدب لأبي أحمد العسكري- دراسة نقدية تحليلية، قسم اللغة العربية، كلية التربية للعلوم الانسانية، جامعة تكريت- العراق.
- زيبوش فاطمة الزهراء، (2017)، حق المعنى الشريف للفظ الشريف - رؤية العلماء العرب القدماء لعلاقة اللفظ بالمعنى، مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية، العدد 09، المجلد 05.
- سيويته، بن عثمان، عمرو (1408هـ-1988م)، الكتاب، القاهرة، مصر، مكتبة الخانجي.
- سيدي موسى، فائزة، (2020)، النظم عند عبد القاهر الجرجاني وعلاقته بالإعجاز اللغوي في القرآن الكريم- نماذج مختارة، مجلة دراسات لسانية، العدد الثالث
- عباس، فضل، (1997)، إعجاز القرآن، عمان، الأردن، منشورات جامعة القدس المفتوحة.
- العسكري، أبو هلال، (1419هـ)، الصناعتين، بيروت، لبنان، المكتبة العنصرية.
- العموش خلود، (1429هـ/2008)، الخطاب القرآني- دراسة في العلاقة بين النص والسياق، عمان، الأردن، عالم الكتب الحديث.
- غدير أحمد بني حمدان، (2006م)، أثر عبد القاهر الجرجاني في الدراسات البلاغية الحديثة، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، الأردن.

7. Bibliography List

- Abbas، Fadl، (1997)، The Inimitability of the Qur'an، Amman، Jordan: Al-Quds Open University Publications.
- Abu Al-Hassan، Ali bin Issa (Al-Rummani)، (1976) ،The Subtleties of the Quranic Miracle، Published within: *Three Treatises on the Quranic Miracle، Dar Al-Maaref، Cairo، Egypt.
- Ahmad bin Hamdan، Ghadeer، (2006) ، The Impact of Abdul-Qahir Al-Jurjani on Modern Rhetorical Studies، Graduate School، University of Jordan.

- Al-Amoush, Khulood, (2008), The Qur'anic Discourse: A Study in the Relationship Between Text and Context, Amman, Jordan: Alam Al-Kutub Al-Hadith.
- Al-Askari, Abu Hilal, (1419 AH), Al-Sina'atayn, Beirut, Lebanon: Al-Maktaba Al-Asriyya.
- Al-Douri, Hassan, (2020), Al-Masoon fi Al-Adab by Abu Ahmad Al-Askari: A Critical and Analytical Study. Department of Arabic Language, Faculty of Education for Humanities, University of Tikrit, Iraq.
- Al-Jurjani, Abdul-Qahir, (1976), Al-Risala Al-Shafiya, Egypt: Dar Al-Ma'arif.
- Al-Jurjani, Abdul-Qahir, (2001), Dala'il Al-I'jaz fi 'Ilm Al-Ma'ani, Beirut: Dar Al-Kutub Al-Ilmiyya.
- Bashi, Nabil Qassab, (2010), The Theory of Nazm According to Al-Khattabi in the Standards of Modern Criticism, University of Ajman Journal of Science and Technology, vol. 3, no.1, p. 7.
- Bou Dokha, Masoud, (2018), The Theory of Nazm: Its Origins and Applications.* Academic Book Center, Amman, Jordan.
- Ghadeer Ahmad Bani Hamdan, (2006), The Impact of Abdul-Qahir Al-Jurjani on Modern Rhetorical Studies, Faculty of Graduate Studies, University of Jordan, Jordan.
- Hamad bin Ibrahim, Al-Khatibi, (1976), Bayan I'jaz Al-Qur'an, included in Thalath Rasa'il fi I'jaz Al-Qur'an. Egypt: Dar Al-Ma'arif.
- Hamad, Ibrahim, Al-Khatibi, (n d), Min Lata'if Bayan I'jaz Al-Qur'an, Place of publication unknown: Islamic Books Collection.
- Hussain, Muhammad, (1998), Qur'anic Eloquence in Al-Zamakhshari's Interpretation and Its Impact on Rhetorical Studies. Egypt: Maktabat Wahba.
- Ibn Al-Muqaffa, Abdullah (n d), Al-Adab Al-Saghir wa Al-Adab Al-Kabir (The Small Book of Literature and the Large Book of Literature), Dar Ibn Al-Qayyim, Alexandria, Egypt.
- Ibn Al-Qayyim, (1987), Jala' Al-Afham fi Fadl Al-Salat 'Ala Muhammad Khayr Al-Anam, Kuwait: Dar Al-Urouba.
- Ibn Bahr, Amr (Al-Jahiz), (2003), Al-Hayawan, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah, Beirut, Lebanon.

- Ibn Bahr, Amr (Al-Jahiz), (2002), Al-Bayan wa Al-Tabayin, Dar wa Maktabat Al-Hilal, Beirut, Lebanon
- Ibn Bahr, Amr (Al-Jahiz), (1964), Al-Rasa'il (The Letters), Maktabat Al-Khanji, Cairo, Egypt.
- Ibn Qutaybah, Abdullah, (n.d), Ta'weel Mushkil Al-Quran (Interpretation of the Difficulties of the Quran), Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah, Beirut, Lebanon.
- Khalid Rabeh Abu Ali, Nabil, (1993), Criticism of Prose in Arab Heritage Until the End of the Abbasid Era (656 AH), Egyptian Book Organization.
- Khalifa, Aboud, (n.d), The Issue of Word and Meaning in Al-Jurjani's Framework, Annals of the Faculty of Arts and Languages, University of Tahri Mohammed Yashar, Issue 15, p. 160.
- Sibawayh, Amr ibn Uthman, (1988), Al-Kitab, Cairo, Egypt: Maktabat Al-Khanji.
- Sidi Moussa, Faiza, (2020), Al-Nazm According to Abdul-Qahir Al-Jurjani and Its Relationship to Linguistic Miraculousness in the Qur'an: Selected Models, Linguistic Studies Journal, Issue 3, p 21.
- Zibush, Fatima Al-Zahraa, (2017), The Right of Noble Meaning for Noble Word: The Vision of Ancient Arab Scholars on the Relationship Between Word and Meaning. Al-Hikmah Journal for Literary and Linguistic Studies, Issue 9, Vol. 5, p 271.